الصوت الفلسطيني

في الذكرى السنوية الثانية لاستشهاد كنفاني ، وبعد مرور اكثر من سنة على استشهاد كمال ناصر ، منح اتحاد الصحفيين العالمي جائزته التقديرية الى كنفاني . كما منح اتحاد كتاب آسيا وافريقيا احدى جوائز اللوتس مناصفة بين كنفاني وناصر .

في هذه الذكرى ، نقف لنتذكر تجربة المجد الدموي ، الذي يكلل اقلامنا . حافة الموت هي الحياة التي تعطي للاعشاب النامية وسط الحصار ، نقاءها وخضرتها .

يأتي الصوت الفلسطيني ، داخل أدبنا العربي ، مليئا بالتوتر وبعد الممارسة . انه ينطلق من ذروة الفجيعة ، داخل العرس الدموي ، ليعطي للكتابة بعدا يتجاوز الالتزام بمعناه التقليدي الى أفق هذا الالتزام . أي الى مشارف جديدة ، تضيء تجربة الطليعة الثقافية ، التي تبحث عن علاقاتها داخل الفعل التاريخي .

هكذا يتميز الصوت الفلسطيني دون ان ينعزل . يعرف حدوده بوصفه جزءا داخل انتاج ثقافي ، لم يكن يوما ، في قلقه الداخلي ، سوى فلسطيني الفجيعة ــ اذا كان للفجيعة صفة ــ ويتوحد الصوت الفلسطيني داخل التوتر العربي الذي يبحث بالكلمات والممارسة النضالية عن طريق الدماء .

هنا ، يصبح لانتاجنا الثقافي تاريخ حقيقي ، تتحدد ضرورة الدراسة العلمية ، لمرحلة أدبية مليئة بالالام والحلم . لا يكفي الوقوف أمام ثقافتنا اعجابا او انتقادا او ملاحظات . ان مهمتنا هي محاولة استخلاص الدروس ، حتى نتجاوز المنزلق الذي يقودنا اليه وضع انحطاطي يحاصرنا . فالثقافة الثورية ، لا تتجاوز السائد ، الا ضده . ولا تصل الى هذا الضد خارج دروس تجربتها نفسها . هكذا يتحدد دورنا في مزيد من الايغال في التجربة ، مزيد من البحث عن صوت الكتابة التي تتجاوز . وهذا لن يستكمل خارج تاريخنا ، رغم ثغراته . فدراسة تاريخ البحث عن طليعية الممارسة الثقافية ، هو شرط استمرار البحث نفسه .

« حصان يحب غزالة

لا بد من ريح

ولا بد من حارس

للحيلولة دون الزفاف » .

بعد هذا تتفلت اللغة الشعرية . « محاولة رثاء بركان » هي افضل نثر يغتصب الشعر ، ويعيد للنثر الشعري بكارته التأسيسية . نحن أمام الانفعال الصافي الذي يخرج متمردا على جميع القواعد المسبقة . لكنه يقيم ايقاعه الداخلي الامتدادي ، حيث يسمح للتوتر بمدى اوسع من القدرة على التعبير . « ومن انت يا غسان كنفاني حملناك في كيس ، ووضعناك في جنازة بمصاحبة الاناشيد الرديئة ، تماما كما حملنا الوطن في كيس ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الان ، وبمصاحبة الاناشيد الرديئة » . هذا الامتداد هو الذي يسمح للنبرة التأملية بالتكثف شعرا ، دون ان يستطيع حجب البناء النثري للقطعة الادبية . من هنا يقترب صوت درويش من ذلك النثر الذي كان في اساس الحركة الشعرية الجديدة : نثر جبران وفؤاد سليمان . لكنه لا يدعي في نثره اية حصانة شعرية . التركيب الداخلي للنثر هو الذي يكشف ابعاد الشعر . فتتدرج اللحظة الانفعالية من التأمل ، « اكتملت رؤياك ، ولن يكتمل جسدك » الى الحزن السكوني الشفاف ، « ولكني استأذنك الان في البكاء قليلا » . وبين هذين الحدين نكتشف التحريض من داخل الموقف ، لذلك يستبدل النص التشكيلية بالصور الشعرية المفاجئة ، « يئس الموت منك وانتحر » او « طوبى للجسد الذي يتناثر مدنا » . تتركب الصورة الشعرية من داخل الفعل وليس من الاستعارة العارية . انتحر ويتناثر هي الافعال التي تفجر الصورة . من هنا يستوي الشعر داخل المخاطبة النثرية . يدخل اليها دون ان يشل بنيتها الخاصة . فنحن امام شكل واضح من الكتابة . من هنا يأخذ النثر الشعري الانفعالي خصوصيته دون ان يختلط بالشعر عشوائيا . لكنه يبقى على اطراف لغة القصيدة امتداد حوار لا ينقطع ، حتى تتوصل الكتابة الى الغاء المسافات بين الاشكال ، ليتأسس الشكل الابداعي انطلاقا من الحالة نفسها . وعندما يتابع درويش مراثيه ليصل الى كمال ناصر ،